

القومية العربية والنزعة الانسانية

د. عبدالله عبدالدايم

خلال سنوات نهضتنا الحديثة - نحن العرب- وهي نهضة نريدها قومية، ونريد لها أساسا قوميا، تبرز بعض الشكوك ويثور العديد من التساؤلات.

وعلى رأس هذه التساؤلات ما اتصل منها بمدى الاتفاق أو الافتراق بين النزعة القومية والنزعة الانسانية، وكثيرا ما نطالع في نفوس كثير من الحريصين على الفكرة القومية شيئا من الاشفاق، على الفكرة الانسانية المشتركة، ذلك الاخلاص الذي يخيل اليه أحيانا أن هذه القيم الانسانية المثلى قد يعروها الاهمال أو الفتور عند الاخذ بالفكرة القومية.

وما نريد ههنا أن نعود الى حديث مكرور سبق أن نفضته الاقلام كرة بعد كرة، وليس غرضنا أن نبين من جديد عمق الصلة بين النزعة القومية والنزعة الانسانية، وقيام تآزر وتواصل بينهما، وحسبنا أن نؤكد بعض الحقائق المهمة في هذا الباب في الصيغ الآتية:

١- التناقض الذي يخشاه بعضهم بين القومية والانسانية، هو في حقيقة الأمر التناقض بين القومية والأممية، لأنن القومية والانسانية.

٢- الحركات القومية في أصلها ونشأتها لم تكن حركات معادية للانسانية، بل كانت على العكس حركات إنسانية المنزع حرة الأهداف ، هذا ما نجده في القومية الالمانية في بداية ظهورها على يد فيخته، وهذا ما نلقيه في القومية الايطالية أيام " مازيني " وما نعرث عليه في الحركة القومية السلافية أيام " دوبرفسكي " و " سفاريك " و " كولر " وغيرهم ، جميع هذه الحركات القومية التي انطلقت في بداية القرن التاسع عشر قامت لدى شعوب مضطهدة مجزأة ، أرادت أن تحقق حريتها ووحدتها عن طريق الحركة القومية، فضمنت بذلك هذه الحركة معنى إنسانيا منذ البداية، إذ جعلتها تعني بالدرجة الأولى التحرر من الاستعمار، وحق الشعوب في تقرير مصيرها، وكان شعار هذه الحركات القومية دوما المناداة بحرية الشعوب وبالعالم انساني متآخ يزول فيه عدوان أمة على أمة.

٣- أما انحراف بعض القوميات عن الأهداف الانسانية، على نحو ما جرى في ألمانيا النازية وايطاليا الفاشية فلا ينهض حجة على المبدأ القومي نفسه، بل هو نتيجة تشويه مقصود للفكرة القومية، اصطنعه أربابه لغايات سياسية وحربية، وتنكبوا فيه طريق القومية الصحيح، بل اتخذوا من القومية ذريعة لأغراضهم المعادية للقومية وللانسانية معا.

٤- الحركات الانسانية في التاريخ، منذ أيام الاسكندر الأكبر حتى الآن، لم تكن حركات معادية للقومية ولم تقم الدعوة الانسانية على أنها زوال لأطر القوميات، وارتداء في أممية مسفوحة الحدود والأركان.

٥- الفكرة القومية تؤمن بأن هدفها الأول والأخير هو الانسان، هو تفتح واستخراج طاقاته وامكانياته، وهي ترى أن هذا التفتح الكامل للانسان يتم على أكمل وجه ضمن إطار حياته القومية، فعن طريق حياته القومية، وضمن تربته القومية يزكو الانسان ويعطي كامل مدها، ويستطيع أن يسهم فعلا في حضارة أمته وفي حضارة الانسانية بالتالي.

وحسبنا هذا القدر فيما يتصل بالصلة العامة التي تقوم بين الفكرة القومية والفكرة الانسانية ، هذه الصلة التي لم نقصد إليها في بحثنا، بل قدمناها بين يديه، ليتخذ مكانه الصحيح ضمن الاطار الفكري للحركة القومية العربية.

الانسانية والقومية

ذلك أن الذي نريد أن نشير إليه أولاً وقبل كل شيء أن الصلة التي نجدها قائمة بين كل حركة قومية وكل حركة انسانية، صلة تتحقق على أكمل وجه في القومية العربية، ويرجع ذلك إلى سبب أساسي وهو أن هذه الصلة بين القومية والانسانية لدى الحركة العربية تؤصل جذورها من ماضي العرب أنفسهم ومن حضارتهم، ومن الامور الجديرة بالتأمل أن كثيراً من سمات الحركة القومية العربية اليوم، كما نريدها وكما يفهمها العقل الحديث الذي اتصل بالتجربة العالمية في هذا المجال سمات تسقى جذورها البعيدة من الحضارة العربية ومن مقوماتها عبر العصور، ولانغلو إذا قلنا إن الوعي العربي في التاريخ اتخذ في الجملة خطا يتصف بخصائص واحدة متكاملة مستمرة عبر العصور، ترفد اليوم الحركة القومية العربية الناهضة وتقدم لها الغذاء وترسم لها طابعها الاصيل.

وعندما نتحدث اليوم عن الطابع الانساني للقومية العربية، أو عن الطابع الشعبي للقومية العربية، أو عن الطابع الديمقراطي للقومية، بل حتى عن الطابع الاشتراكي للقومية العربية، فنحن نؤكد في الواقع خصائص رافقت الوعي العربي والحركة العربية في ماضيها، ثم اعتذت اليوم بمعان جديدة ورفد جديد اشتقته من التجربة العالمية ومن المرحلة التاريخية التي يمر بها العرب.

والمنزوع الانساني للقومية العربية اليوم هو كما نرى أحد المنازع التي تسقى جذورها من التاريخ العربي البعيد، والتي رافقت الحضارة العربية على مداها الطويل، والحديث يطول عن هذا المنزوع الانساني خلال الحضارة العربية الممتدة، وحسبنا أن نشير الى أهم الصور التي تحدد معالم هذا النزوع :

(أ) يتجلى هذا المنزوع الانساني في التمازج الذي تم بين الحضارة العربية والحضارات العالمية عبر العصور.

و جدير بالرعاية أن هذا التمازج لم يكن شيئاً طارئاً في حياة العرب ، تقع عليه في عصور حضارتهم المتأخرة، أي في العصر العباسي، وفي الأندلس، كما يخطر للبال للوهلة الأولى، بل لقد كان هذا التمازج في واقع الأمر بعيد الأصول في حياة العرب، يرجع الى أيام الجاهلية حيث نجده في ارتباط عرب الجزيرة منذ أقدم العصور بالممالك المجاورة عن طريق التجارة وغيرها، كما نجده في الصلات التي قامت في أواخر العصر الجاهلي بين العرب ودولتي الفرس والروم ، ثم نجد هذا التمازج بعد ذلك في صدر الاسلام، ولاسيما أيام الفتوحات الاسلامية الكبرى ، حيث أخذ ذلك التمازج أسمى أشكاله إذ كانت الفتوحات العربية فتوحات ثقافية وروحية، ولم تكن فتوحات حربية، وإذ أدت الى تكوين رقعة ثقافية جديدة للأمة العربية لا إلى تكوين رقعة مكانية جديدة فحسب، فلقد انتشرت ثقافة العرب بل دماء القبائل العربية عن طريق الفتوحات، وكان التمازج على أبرز صورته وأشكاله بين العرب وبين الأمم الأخرى، لأن حامله الأول والأخير كان الثقافة العربية الجديدة والرسالة العربية الجديدة ذات الطابع الانساني.

وفي أيام الدولة الاموية نجد التمازج يبلغ شأواً جديداً، وذلك عن طريق حركة التعريب، تلك الحركة التي لم تقتصر في أيامهم على نقل الثقافة العربية والدماء العربية الى الأمم المفتوحة، بل جاوزت ذلك إلى خطوة جديدة مهمة، لها معناها فيما يتصل بالطابع الانساني للحضارة العربية، ونعني بهذه الخطوة الجديدة تعريب الدواوين الأجنبية، والبدء بالتالي بنقل تراث الأمم الأخرى ، ولاسيما الروم والفرس ، إلى التراث العرب، وهكذا بدأت الأمة العربية بعد فتوحاتها تأخذ كما أعطت، وقامت حركة تأثير وتأثر متبادلين بينها وبين الحضارات الأخرى .

ونعلم جميعاً أن حركة النقل هذه قفزت قفزة كبرى أيام العباسيين حيث نشطت حركة الترجمة ونظمت، وأصبح تمازج الثقافات ظاهرة بارزة في حياة العرب.

ولا حاجة بعد هذا الى أن ذكّر بالتمازج الأكبر الذي تم عن طريق الأندلس، يوم نقلت الحضارة العربية إلى الأمم الأوروبية، يوم كان نقلها هذا نقطة الانطلاق في تطور العقل الحديث وولادة الحضارة الحديثة، وحسبنا في هذا المجال أن نذكر حقيقة مهمة، وهي أن التراث العربي الذي تم نقله إلى اللاتينية ثم إلى اللغات الأوروبية فيما بعد، لم يكن التراث الأدب أو الفلسفي فحسب، بل كان أولاً وقبل كل شيء، التراث العلمي، كانت الأبحاث التجريبية والروح التجريبية التي سببت ثورة الفكر الحديث، وخلفت ما عرف فيما بعد باسم روح " بيكون " أي روح تغلب الإنسان على الطبيعة.

وهكذا نجد الاخذ والعطاء قائمين بين الحضارة العربية والحضارات الأخرى منذ أقدم عصور التاريخ، بل نجد العرب يمثلون في تاريخ الإنسانية الجسر الحقيقي الذي عبرت عليه الثقافات المختلفة لتتطلق في نهاية الامر في أفق الثقافة الإنسانية الحديثة .

المعنى الانساني

(ب) على أن المنزع الانساني للحضارة العربية لا يتجلى فقط في هذا التمازج الذي حققته بينها وبين حضارات الشعوب الأخرى ، وإنما يتجلى قبل هذا وأكثر من هذا في المعنى الانساني الذي حملته الحضارة العربية، ونقصد بهذا المعنى الانساني ما التزمت به الحضارة العربية من تعهد حقيقي لقيم الإنسان وكرامته، فالحضارة العربية حضارة احترمت الإنسان وكرمه، ولم تبج اضطهاده وامتداده، والايمان بالقيم الانسانية، ايمان رافق العرب أيضا عبر العصور وطبقوه في سلوكهم مدى التاريخ.

ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نتعمق نظرة العرب الى الإنسان ومدى ما فيها من تكريم له وايمان بمثله وقيمه، وحسبنا أن نذكر شواهد على ذلك مما نفع عليه في الدولة العربية بعد تكوينها منذ أيام الفتح الاسلامي، من مساواة بين الناس، وابتعاد عن العصبية العرقية، وتنكر للعصبية الدينية، ولقد برزت فكرة المواطن في الدولة العربية في أبرز صورها منذ تباشير الحركة الاسلامية، واتخذت اللغة العربية الرابطة الكبرى التي جمعت بين أبناء هذه الدولة، وعدت الروابط الأخرى غير الاسلامية روابط ثانوية، وأبيحت ضمن الكيان العربي حرية الأديان وحرية المعتقدات ، بل واسهم أبناء الديانات الأخرى غير الاسلامية في بناء الدولة إسهام المسلمين في ذلك ، وأسهم المتعربون من غير العرب الأصليين في بناء الحضارة العربية إسهام العرب في هذا البناء، ولقد استطاع العرب حقاً منذ تلك الأيام الخوالي أن يثبتوا عملياً إمكان التوفيق بين الطابع العربي للدولة العربية وبين احترام الإنسان بغض النظر عن جنسه

وانتسابه، أى بين المنزع القومي والمنزع الانساني، وجعلوا الجامع الذي يجمع بين جميع أبناء الدولة العربية هو العمل لهذه الحضارة العربية الموحدة والايمان بأهدافها ومثلها الانسانية ، بل لقد أضمرنا تعريفاً للعرب قوامه نسبة العروبة الى كل من تعرب وتكلم العربية وعمل لنصرة الحضارة العربية، كما أضمرنا تعريفاً لغير العرب يجعله ذلك الذي يعادي الكيان العربي والرسالة العربية وان يكن من قريش.

والشواهد أكثر من أن تحصى، تشهد جميعها على ما قيض لغير العرب من شأن ومكانة في الدولة العربية، كما تشهد على ما كان للعرب غير المسلمين من مشاركة فعالة في أعمال الدولة وما تم لهم من صون لمعتقداتهم ودياناتهم، لقد كان شعار الدولة العربية دوماً ما جاء في الآية الكريمة : [وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا] وكانت روحها ، [ولقد كرّمنا بني آدم] .

(ج) ومن الجوانب الجديرة بالذكر، في مجال المنازع الانسانية للحضارة العربية، جانب قل أن يعار ما يستحق من اهتمام ، وهو شأن اللغة العربية نفسها في هذا الانفتاح على الإنسان وعلى العالم ، فاللغة العربية ليست لغة قومية ضيقة، وإنما هي في طبيعة تكوينها لغة انسانية ، اكتسبت خلال العصور القدرة

على أن تكون أداة للتواصل الانساني ولنقل الحضارة العالمية، ومن الجوانب التي ما تزال تحتاج الى مزيد من الشرح والتوضيح ما تشتمل عليه كل لغة من خصائص الامة التي تتكلم بها، وما تحمله من فلسفة ونظرة الى الكون والاشياء، ومما يحتاج الى مزيد من التفصيل خاصة ما تشتمل عليه اللغة العربية، في تراكيبها ومفرداتها وطريقة تعبيرها وتدفق أسلوبها، من انفتاح على الفلسفة العالمية الانسانية.

لقد طاب للفيلسوف فيخته أن يستخلص خصائص الامة الألمانية من لغتها وأن يوازن في ذلك بينها وبين اللغة الفرنسية، مستخلصا بدوره خصائص الامة الفرنسية من هذه اللغة، وحلا له أن يقرر أن طبيعة اللغة الفرنسية لا تنتج إلا أن تخلق روح الكذب والخداع، بينما تتجه طبيعة اللغة الألمانية الى انتجاع الصدق والحق، ومهما يكن في قول " فيخته " من غلو، يظل من الصحيح أن روح الامة كامنة في لسانها، في أساليب هذا اللسان وتعابيره وما سجله من أقوال سائرة ومن نماذج في الكتابة والتعبير ثابتة راسخة، وإذا ما يسر لابناء العربية مثل هذا العود الى عبقرية اللسان العربي، استطاعوا أن يدركوا كثيرا من الارتباط بين المنازع الانسانية للحضارة العربية وبين منازع لغتهم، أو نعجب بعد هذا من أن يقرر مثل المستشرق " ماسينيون " مثل هذه العبارة:

" لندفعهم (يعني العرب المحدثين) الى احترام عربيتهم، هذه الآلة العضوية الصافية والصالحة لنقل اكتشافات الفكر عبر الدول، فلا نحيلها مسخا مقلدا للغاتنا الأرية، كما لانتركها تتخثر في قومية ضيقة مثلما فعل بالعبرانية الجديدة على يد الصهيونية المتطرفة، ان البعث الدولي للغة العربية عامل أساسي في إشاعة السلام بين الامم في المستقبل، وقد كانت هذه اللغة في نظر كثير من الفرنسيين المسيحيين- وأنا منهم- وما تزال، لغة الحرية العليا ووحى الحب والرغبة التي تطلب إلى الله- من خلال الدموع- أن يكشف عن وجهه الكريم .

الوعي الروحي

وبعد، فإن الرسالة الانسانية رسالة عريقة عند العرب، واكبت تاريخهم الطويل، وهم عندما يعاودونها اليوم ضمن اطار الحركة القومية العربية الجديدة، يخلصون في ذلك لمنازع هي منهم في الصميم، وهي لهم القوام والاصل، إنهم يشعرون أعمق الشعور أن وجودهم القومي مرتبط في جوهره وأصوله بالوجود الانساني، وأنهم لن ينعموا بهذا الوجود القومي الا ضمن الوجود الانساني الشامل، كما أنهم لن يجدوا الوجود الانساني في كامل مداه الا ضمن وجودهم القومي وفي هوائه .

إن الاتحاد العميق بين الاصالة والتجديد، الذي هو سمة لازمة لكل حضارة وليدة، يتخذ لدى العرب شكل هذا الاتحاد الوثيق بين عربيتهم وإنسانيتهم، فعودهم الى عربيتهم يصلهم بالمنازع الانسانية ويربهم اياها في تلك العروبة، واتصالهم بالمنازع الانسانية لا بد أن يردهم في نهاية الامر الى قوميتهم التي تحمل هذه المنازع في صلبها.

والوعي الروحي الحق لأية أمة من الأمم لا يتم في حقيقة الأمر الا عن طريق تحقيق هذا الاتحاد عن طريق تلك الجولة التاريخية التي تبين للفرد ارتباطه بأمتة، وارتباطه بالانسانية من خلال هذه الامة، فلقد انعقدت الصلة بين تاريخ أمتة وتاريخ الشعوب الاخرى، بين حضارة أمتة وحضارات الامم الاخرى، ومن شأن هذا الانعقاد أن يجعل بحثه عن أصوله التاريخية- وهو شرط لازم لكل وعي روحي لدى الفرد- بحثا يقوده في طبيعة الامر الى تاريخ أمتة المتصل بتاريخ العالم، والي تاريخ الانسانية من خلال تاريخ أمتة.